الفصل الرابع

الافتتاح بالقسم في سورة والعاديات

خمس عشرة سورة في الذكر الحكيم افتتحن بالقسم ، والعجيب أنهن جميعا مكيات ، وأسلوب القسم من أساليب الإنشاء غير الطلبي وله ـ جل في علاه ـ أن يقسم بما شاء من صفاته ، أو من مخلوقاته والأقسام التي افتتحت بها السور جميعا من مخلوقاته ـ سبحانه ـ وفي ذلك دلالة على عظمة هذه المخلوقات ، ويكون المراد توكيد المقسم عليه وتحقيقه ، وغالبا ما يكون ذلك في الأمور الغائبة والخفية حين القسم على ثبوتها كما أفاده ابن القيم[1] رحمه الله ، وأسلوب القسم يشابه أسلوب الشرط من حيث افتقار كل منهما إلى جواب ، ودائما تتابع الجمل عقب المقسم به ، ويبعد الجواب كأسلوب الشرط ، وتأتي تراكيب السورة متناغية مع المقسم به وما استتبع ، ومع الجواب ، وما استتبع كأسلوب الشرط ، كلاهما يعقد الكلام بأواصر ظاهرة ، ويومئ إلى تعانق آي السورة وغالبا ما يكون المقسم به توطئة للمقصود ، ويكون المقسم عليه هو قطب

(١) راجع : التبيان في أقسام القرآن ص٦ .

المقصود ، والتناسب موجود لا محالة بين المقسم بـه والمقسم علـيه ، وما عقد بكل من الآي بحيث لو وضعت العصر موضع الليل أو الفجر لما صلح ، وبحيث لو وضعت المرسلات موضع الصافات أو النازعات لانفرط عقد آي السورة ، لأن آي كل سورة معقودة بما أقسم به في صدرهما والأمر بعد في محاولة استكشاف التناسب بين القسم بالعاديات وآى السورة .

موقع السورة في الكتاب العزيز :

هذه السورة هي المائة في الكتاب العزيز حسب ترتيب المصحف الشريف وهى الرابعة عشرة حسب ترتيب النزول نزلت بعد سورة العصر ، والإنسان واقع جواب قسم في العاديات ، وفي العصر ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ** ﴾ ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ** ﴾ ، والعاديات تتناسب مع الزلزلة تناسبا ظاهرا قال السيوطي : «لا يخفى ما بين قوله في الزلزلة : ﴿ **وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا** ﴾ وقوله في هذه السورة : ﴿ **إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ** ﴾ من المناسبة والعلاقة»[1] يريد أن الآيتين مخبرتان بالبعث من القبور .

والزلزلة حديث عن التشتيت والتفريق ، والعاديات حديث عن الغارة المصبحة التي تنتج التشتيت والتفرق أيضا ، وقوله : ﴿ **فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا** ﴾ وهو غبار المعركة يتناسب مع قوله في الزلزلة : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ** ﴾ يتناسب مع قوله في الزلزلة : ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ** ﴾ .

---

(١) تناسق الدرر ص١٥٦ .

وجاءت القارعة بعدها لبيان وقت ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ لذا رأيت فيها ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ للدلالة على التشتيت والتفرق نتيجة البعثرة ، لذا لا يصلح أن تضع تشبيها لانتشار الناس يوم القيامة يناظر هذا التشبيه كقوله مثلا : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (القمر:٧) فأنت ترى صورة الناس في القارعة ذروة امتداد سياق بدأ من سورة الزلزلة ، ومر بالعاديات وانتهى بالقارعة ، ووقع في القارعة أيضا النص على الحال التي بعد قوله : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ ترى قوله بعده في القارعة ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ وهو من نور قوله في الزلزلة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ وهكذا ترى السورة معقودة بخيوط من التي قبلها ، ومن التي بعدها كالخيوط التي تعقد كل آية بما بين يديها من الآي وما خلفها .

هذا موقع السورة في الكتاب العزيز ، أردنا به استكشاف امتداد نور السورة .

مقصود السورة :

قال البقاعي : رحمه الله « ومقصودها : الإعلام بأن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك ، لإيثار الفاني من العز والمال على الباقي عند ذي الجلال المدلول عليه بالقسم ، وهو العاديات ، والمقسم عليه ، وما عطف عليه ، وقد علم أن اسمها أدل شيء على ذلك »[1] وهو ناظر إلى جواب القسم ، وإلى موقع السورة السابقة منها فالمقاصد المتجاورة متقاربة ، وقد ألمع إلى التناسب بين المقسم به والجواب كما سيأتي شرحه ، فمبنى السورة

(١) مصاعد النظر ٢٣٧/٣ .

على قياس الغائب في هلاك أكثر الخلق حين البعثرة من القبور ، على هلاك أكثر الخلق المباغتين بإغارة قوم يمتطون العاديات الموريات ، لأنهم أهل غفلة كمثل الهالكين يوم القيامة أيضا .

مطلع السورة الكريمة :

قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .

قال الصاوي : ـ رحمه الله ـ « أقسم ـ سبحانه وتعالى ـ بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة ، تعظيما للمقسم به ، وتشنيعا على المقسم عليه »[1] فهو تعادل بين المقسم به والمقسم عليه ، والملحوظ أن المطلع اختص بألفاظ لم ترد في غير السورة (العاديات ـ ضبحا ـ الموريات ـ قدحا ـ المغيرات ـ أثرن ـ نقعا ـ وسطن ـ كنود) ، وذلك معلم دال على اختصاص السورة بمقصود دون غيرها .

والافتتاح بالقسم أومأ إلى طول جملة المطلع والمقسم به من جملة مخلوقات الله ، والمقسم عليه حال من أحوال الإنسان ، ويختلف أهل العلم في المراد بالعاديات على أقوال ثلاثة أولها : أن المراد بها الإبل تعدو في الحج وهو قول علي ـ رضى الله عنه ـ وقد انتصروا لرأيهم بأن السورة مكية نزلت قبل تشريع الجهاد ، وتأولوا الضبح بالاستعارة للإبل فرارا مما تجري عليه سنة العربية من استخدامها للخيل .

الثاني : أن المراد بها خيل الحرب ، وقد انتصروا لرأيهم بالسياق ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ ـ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ وهذان أثران لحوافر الخيل ،

(١) الصاوي على الجلالين ٣٤٣/٤، وهو منقول عن الكرماني البرهان ، ص٢٢٣ .

لا لأخفاف الإبل ، وردوا حجة نزول السورة بمكة ، بأن الله أقسم بما يعرفه العرب من حال الخيل ، وقد وقع هذا الخلاف لفهم الصحابة والمفسرين من بعدهم لأن المقسم به معظم ، وقد حاربت الدكتورة عائشة عبد الرحمن هذه الفكرة ، وذلك طعن فيما هو بدهي عند أهل العلم ، فما العلة وراء اصطفاء أشياء من مخلوقات الله يقسم بها غير التعظيم ، إلا أن تأتينا هي بنبأ يقين .

والقول الثالث : أنها الخيل بعامة محاربة في سبيل الله أو غير محاربة[1] إلا أن السياق يناصر أصحاب القول الثاني ، فإن السياق ليس في القسم بالخيل فحسب وإنما القسم بالخيل حال الحرب ، كما تؤدي إليه التراكيب ، بل الحرب الشعواء كما تدل عليه الألفاظ ، وتعاطف الجمل بالفاء الدالة في هذا الموقع على تلاحق الأحداث ، الذي يعكس اشتداد أوار الحرب وحميا لظاه .

ثم إن في هذه التسمية ﴿ **وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ** ﴾ إلماعًا إلى الحرب ، فهي من العَدْو والعَدْو يتقارب في مادته مع العدُوّ ، لذا لم يجزأن يقول : والخيل ضبحا لتنافره مع القيد بعده ﴿ **ضَبۡحٗا** ﴾ فالضبح هو صوت أنفاس الخيل إذا عدون ولتنافره أيضا مع الآية بعده ﴿ **فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا** ﴾ لأن إيراء القدح يكون عن سير سريع والعاديات يدل على الخيل مع الوصف بالسير

---

(١) راجع في ذلك : جامع البيان ١٧٦/٣٠، ١٧٧، والكشاف ٢٧٧/٤، والقرطبي ٧٤٩٥/١٠، ٧٤٩٦، والتبيان في أقسام القرآن ص٤٩-٥١، والبيضاوي ٥٧٢/٢، وابن كثير ٥٤١/٤، وأبو السعود ٦٥٧/٨، وما بعدها ، ومفاتيح الغيب ٦٥٧/٨، ٥٧٥/٤، جزء عم للإمام محمد عبده ص١٠٧، والتحرير والتنوير ٤٩٩/٣٠، والتفسير البياني ١٠٣/١ وما بعدها .

السريع وليس ذلك في لفظ الخيل ، ولتنافر أيضا مع قوله : ﴿ **فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا** ﴾ فإن إثارة النقع لا تكون إلا عن سير سريع ، وهكذا ترى التناسب ظاهرا ، بحيث لو استبدلت لفظا بلفظ لانفرط عقد الآي .

واختلفوا في عامل النصب في ﴿ **ضَبْحًا** ﴾ فإما أن يكون منصوبا على المصدر أي مفعولا مطلقا ، ويكون ذلك دالا على تأكيد الفعل ، وإما أن يكون في موضع الحال ، وهو الألصق بالسياق الذي يصاعد البيان عن الإثارة وقوله : ﴿ **ضَبْحًا** ﴾ توطئة للآيتين بعده ، لأن من قول العرب : ضبحته النار إذا غيرت لونه ، ولم تبالغ فيه[1] فقد أومأ هذا اللفظ إلى الإيراء والإغارة فالمراد وصف الخيل في حال معينة ، ويلحظ أن جمل المقسم به تعاطفت بالفاء ، التي تدل على سرعة الحدث ، مع ضميمة دلالتها على الترتيب ، كما يلمح فيها ترتيب المسبب على السبب ، فإن العدْو سبب في الإيراء ، والإغارة هي المقصود من العدو والإيراء ، قال الصاوي عند قوله : ﴿ **فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا** ﴾ «عطفه وما بعده بالفاء ، لأنه مرتب على العدو»[2] ويدل اسم الفاعل هنا على اشتداد العدو ، وكل ذلك توطئة لقوله : ﴿ **فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا** ﴾ ، والسياق يأتي أن يكون المراد قدح النيران بالليل حين نزولهم لحاجتهم وطعامهم ، وأن يكون (قدحا) بمعنى استخراج المرق من القدر في القداح لإطعام الجيش[3] ، فالسياق تصوير لأحداث متلاحقة ومتآزرة في البيان عن خيل أغارت صبحا على جمع محتشدين فباغتتهم فتبعثروا والأمر في إعراب (قَدْحًا) كمثله في إعراب ﴿ **ضَبْحًا** ﴾ .

---

(١) راجع : القرطبي ١٠/٧٤٩٥، ٧٤٩٦ .

(٢) الصاوي على الجلالين ٤/٣٤٣ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٠ .

والإغارة سبب في العدو والإيراء ، لذا قال تعالى بعد : ﴿ **فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا** ﴾ واسم الفاعل يتناسب مع اسم الفاعل في صدر السورة ، فإن العادي مغير وإن المغير عاد لتقارب لفظي العَدُوُّ والعَدْوِ ، وقد دل هذا القيد ﴿ **صُبْحًا** ﴾ على انتهابهم غفلة الناس وسيرهم ليلا ، وتشاربا من نور السياق جاء الإسناد هاهنا على وجه المجاز العقلي فإن الإغارة تسند إلى الفوارس لا إلى الخيل ، إلا أنها جاءت كذلك ، إيماء لبلوغ أسباب الإغارة مبلغا عظيما حتى كأنها هي المغيرة ، ويدل ذلك على اندفاعها في السير بقرينة ما مضى من السياق قال الصاوي رحمه الله : « أسند الإغارة ـ وهي مباغتة العدوِّ للنهب أو القتل أو الأسر ـ للخيل مجازا عقليا ، لمجاورتها لأصحابها ، وحقه أن يسند لهم »[1] وقد جاء كذلك « للإيذان بأنها العمدة في إغارة أهلها »[2] ثم إن هذا القيد ﴿ **صُبْحًا** ﴾ أضفى دلالة أخرى في اشتداد السير ، وذلك ظاهر من تحديد ما قبل الإغارة (الليل) فالقدح فيه يكون ظاهرا جـدا ، والبعثرة في هذه الآية واضحة جدا تناسبا مع قوله بعد : ﴿ **أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ** ﴾ ، وكل تعظيم وتفصيل في المقسم به ، فيه انعكاس على مقصود السورة ، وقد أفاد العطف بالفاء الترتيب « دون تراخ أو تمهل وإبطاء ، ما بين عدوها ضبحا وإغارتها صبحا »[3].

والناصب لـ ﴿ **صُبْحًا** ﴾ الظرفية ، وهو قيد أضفى دلالة المباغـته على ما مضى وقد عطف على ما مضى قوله : ﴿ **فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤** ﴾ وهذا الضمير من المعالم اللفظية على معاقد الكلام ، وفي عود الضمير وجوه ،

---

(١) الصاوي ٣٤٣/٤، والتحرير والتنوير ٥٠٠/٣٠ .

(٢) الفتوحات الإلهية ٥٧٥/٤ .

(٣) التفسير البياني ١٠٧/١ .

فإما أن يكون عائدا على العدو ، وإما أن يكون عائدا إلى الزمان ﴿ صُبْحًا ﴾ وإما أن يكون عائدا إلى المكان[1] وذلك من ثراء تعبيرات القرآن الكريم ، فالنقع يثار بالفعل ولا بد له من زمان ومكان ، وقد ذكروا أن النقع هو غبار المعركة ، ونظروا إلى قوله ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ . . . ﴾ فقالوا : وقد يكون النقع رفع الصوت بالصياح والجلبة .

وينقل المعنى حينئذ من وصف العاديات الموريات المغيرات إلى وصف أثر ذلك على الجمع المقصود بالإغارة ، ولعله الأولى ، فإن إثارة النقع مدلول عليه بما مضى من العدو والإيراء والإغارة ، وتكون الباء حينئذ في ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ ﴾ باء السببية أي أثرن صياحا وجلبة بما مضى ، من أثر المباغته وهول المفاجأة ويكون عود الضمير على الزمان متناسبا مع تفسير النقع بالغبار إذ لا يظهر ثورانه بالليل ، المهم أن دلالات الآية لا تتناهى لاسيما إذا نظرت إلى تجاذبها الآيات السابقة عليها واللاحقة لها ، وقد استخرج ابن عاشور نكتة لطيفة للتغاير رغم التعاطف ، ولبيان العلة في عدم قول القرآن فالمثيرات نقعا ، فالواسطات جمعا يقول رحمه الله «والفاء العاطفة لقوله : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ ﴾ عاطفة على وصف المغيرات والمعطوف بها من آثار وصف المغيرات ، وليست عاطفة على صفة مستقلة مثل الصفات الثلاثة التي قبلها ، لأن إثارة النقع وتوسط الجمع من آثار الإغارة صبحا ، وليس مقسما بهما أصالة ، وإنما القسم بالأوصاف الثلاثة الأولى ، فلذلك غير الأسلوب في قوله : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ ﴾ فجيء بهما

(١) راجع : الكشاف ٢٧٨/٤، ومفاتيح الغيب ٦٦٠/٨، والقرطبي ٧٥٠٠/١٠، وابن كثير ٥٤١/٤، وإرشاد العقل السليم ٦٥٨/٨، والبيضاوي ٥٧٣/٣، وجزء عم ص١٠٨، والتحرير والتنوير ٥٠١/٣٠، والتفسير البياني ١٠٨/١ .

فعلين ماضيين ، ولم يأتيا على نسق الأوصاف قبلهما ، بصيغة اسم الفاعل ، للإشارة إلى أن الكلام انفصل من القسم إلى الحكاية عن حصول ما ترتب على تلك الأوصاف الثلاثة»[1].

وعطف على قوله : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ ﴾ قوله : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝ ﴾ وقد دل قوله : ﴿ وَسَطْنَ ﴾ على نهاية غفلة المقصودين بالإغارة ، لذا لم يقل فهزمن به جمعا أو ففجأن به جمعا أو غير ذلك ، وهو متناسق مع القيد السابق في الإغارة ﴿ صُبْحًا ﴾ ومع ما أدى إليه السياق قبل من سرعة الخيل ، ثم دل قوله : ﴿ جَمْعًا ﴾ على قوة المقصودين بالإغارة ، فإن لفظ ﴿ جَمْعًا ﴾ «يدل على الحشد الكاثر في المعركة مع مظنة القوة (القمر ٤٤ ، آل عمران ١٥٥ ، القصص ٧٨ ، آل عمران ١٧٣ ، الأعراف ٤٨) وسمي اليوم الآخر في القرآن يوم الجمع لاحتشاد الخلق به بعد بعثهم ، كما استعمل الإجماع في حشد الرأي وتدبير الأمر وإحكام المكيدة (يوسف ١٥ ، يوسف ١٠٢ ، يونس ٧١ ، طه ٦٤) ، وبكل ما لهذا اللفظ من دلالات ـ الحشد والتجمع ومظنة القوة ، يأتي في ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ فيوحي بما كان من احتشاد وهو مظنة قوة لهذا الجمع الذي اقتحمته العاديات ضبحا ، في إغارتها المصبحة»[2].

وصورة الإغارة المعقبة التبعثر ، تتقابل مع التبعثر المعقب التجمع للحساب في آخر السورة ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ والباء في ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ باء الملابسة[3] ، والضمير يعقد

(١) التحرير والتنوير ٥٠١/٣٠، ٥٠٢ .
(٢) راجع : التفسير البياني ١٠٩/١، ١١٠ .
(٣) راجع : إرشاد العقل السليم ٦٥٨/٨ .

الكلام بما مضى من السياق فهو إما أن يعود إلى العدو أو إلى النقع[1] أو إلى الوقت[2] لأنه من كل ما مضى بسبب ، وكل ما مضى من تصوير المفاجأة بالإغارة ، وبيان غفلة المقصودين بالإغارة التي أعقبت التبعثر ، لا سيما بالبيان عن شدة الخيل ومهارتها ، كل ذلك صور لنا مدى هلكة المقصودين بالإغارة ، وذلك إيماء إلى الشق الثاني من أسلوب القسم وما تفرع عليه فالبعث مفاجأة أيضا ، قياسا على هذه المفاجأة يتكرر كثيرا في الواقع ولعل الذين ذكروا أن المراد بالعاديات هي الخيل تغزو في سبيل الله كانوا ناظرين إلى جواب القسم المترجم عن كفران الإنسان وحبه المال وبخله به ، فنسق الجواب يتناسب مع نسق المقسم به على هذا الوجه .

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ وتعظيم المقسم به يعاون تشنيع المقسم عليه ، كأن آيات المقسم به ، لها امتداد في المعنى استغنى عنه بآخر السورة ، فإن القرآن الكريم لم يذكر حال الجمع حين الغارة ، ولا ريب أنها حال هلاك وبعثرة وحيرة وارتباك ، سببها غفلة المقصودين بالإغارة ، ويقظة المغيرين ، فالأولون ممدوحون والآخرون مذمومون ، وكأن القرآن استغنى بجواب القسم عن ذكر حال الجمع ، وما تفرع على جواب القسم ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ بيان لحال الإنسان المقسم عليه ، وحاله المقسم عليها هي السبب في هلاكه هذا ما يومئ إليه البقاعي . فإن المقصود بيان أن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك لكنود هم وحبهم المال وشهادتهم على

(١) مفاتيح الغيب ٦٥٨/٨ .
(٢) الكشاف ٢٧٨/٤ .

ذلك ، كحال الغافلين المصبحين بإغارة قوم امتطوا عاديات موريات مغيرات ، فتبعثروا بالمباغته ، كما تبعثر هذا الإنسان الذي حاله بالمباغتة أيضا ، هذا كما حاولنا تلمسه في المناسبة .

وقد اقتضى أسلوب القسم عليه وتحقيقه فتكاثرت المؤكدات في البيان عن حاله ، تشنيعا عليه ، ناهيك بقوله (كنود) الذي لم يقع في غير السورة الكريمة ، وأكثر أهل العلم على أن الكنود الكفور للمعاشرة ، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئا ، وأصل اللفظ منع الحق والخير ، أو هو العاصي بلسان كندة ، وقد ذكروا ـ بإسناد ضعفه ابن كثير ـ أن النبي ﷺ ذكر (أن الكنود هو الكفور الذي يمنع قدره ، ويأكل وحده ، ويضرب عبده) وهو تفسير لأدنى معاني الكنود ، أو هو اللوام لربه عند المحن والمصائب ، وينسى النعم والراحات ، وكلها أقوال ترجع إلى معنى الكفران والجحود[1] ، وكلما شنع القرآن في البيان عن حاله ، كان ذلك دالا على غفلته بالمال الفاني عن العز الباقي .

وقد تصاعد التشنيع على حاله بقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ والأولى بالسياق أن يكون الضمير عائدا على الإنسان ، فمن عظيم الغفلة أن تكون شاهدا على غفلتك ، وهو إيماء إلى تعظيم العقوبة ، ولا يمنع ذلك من عود الضمير على ﴿ لِرَبِّهِۦ ﴾ ويكون المعنى حينئذ متلائما مع ماختمت به السورة ومتقابلا معه ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ أي وعليهم

(١) راجع : جامع البيان ١٨٠/٣٠، ومفاتيح الغيب ٦٦٠/٨، ٦٦١، والقرطبي ٧٥٠٢/١، والبيضاوي ٥٧٢/٢، وابن كثير ٥٤٢/٤، والكشاف ٢٧٨/٤، والفتوحات الإلهية ٥٧٦/٤، والصاوي ٣٤٤/٤، وأبا السعود ٦٦٠/٨، والتحرير والتنوير ٥٠٢/٣٠ وما بعدها ، والتفسير البياني ١١٠/١ وما بعدها .

في اليوم شهيد ، والتقديم في (بهم وعلى ذلك) للاهتمام والتعجيب من حاله .

وقد تصاعد القرآن في التشنيع عليه بذكر سبب كنوده مع شهادته على ذلك الكنود بقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ وقد ذكروا أن اللام لام التعليل ، وفسروا الخيل بالمال ، وهم ناظرون إلى ما أقسم به الله في صدر السورة من خير المال ، فعقدوا بذلك بين المقسم به والمقسم عليه ومهد للتفريع ، أرأيتم إلى خير المال الذي تحبونه ، لأنه أكثر معين على مباغتة الجميع بالإغارة؟ كذا هو لأهل الغفلة يوم القيامة يكون سببا في المباغتة بالهلاك يوم الزلزلة ، حينئذ لا يجوز استبدال العاديات بغيرها من المخلوقات المقسم بها في صدر السور المفتتحة بالقسم ، وقد رأيت نسق الآي ، وكيف أومأت إلى حال يكون في الآخرة ، والملحوظ أن حال الإنسان المقسم عليها في ثلاث آيات تتلائم في التصعيد بالتشنيع عليه ، مع أحوال العاديات المقسم بها في صدر السورة ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ يقابل ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴾ فالمراد البيان عن سرعة العدو وتجاوز الحد ، وذلك بالقيد ﴿ ضَبْحًا ﴾ ، كتجاوز الإنسان الحد في الجحود والكفران ، كما تدل عليه التوكيدات المتكاثرة في الآية وقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ يتناسب وقوله : ﴿ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴾ ألا ترى أن القدح مشاهد يرى ، ومعلم لسرعة العدو واشتداده ، ومجاوزته الحد ، كما أن قوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ معلم على اشتداد كفران الإنسان وجحوده إذ هو شاهد على نفسه .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ يتناسب وقوله : ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ ، ألا ترى أن ذلك يومئ إلى ما تكون عليه أنفس العاديات من حب الإغارة

حتى كانت من طبعائهن ، وهذا القيد ﴿ صُبْحًا ﴾ دل على إيغالهم في حب الإغارة واسمية الجملة من المعين على ذلك والمناصر له ، بما تومئ إليه من استمرارية الإغارة منهم ، حتى صارت طبعا لهن ، كذا حال الإنسان في حبه المال يجعله يطغى ، فيكند ويشهد على كنوده هذا هو الذي حاولنا البيان عنه فيضا من نور كلام أهل العلم من أن الله أقسم بثلاثة أشياء وجعل جواب القسم ثلاثة أشياء أيضا[1] ، حيث أغرانا كلامهم بمحاولة استكشاف وجوه التلاؤم .

آيات اليوم الآخر وعلاقتها بالمطلع :

قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ .

هذه الآيات مفرعة على ما مضى قال ابن عاشور : «فرع على الإخبار بكنود الإنسان وشحه استفهام إنكاري عن عدم علم الإنسان بوقت بعثرة ما في القبور وهمزة الاستفهام قدمت على فاء التفريع ، لأن الاستفهام صدر الكلام»[2] وفي ذلك مبادرة بإنكار هذه الحال على الإنسان ، وهو بناء متناسق مع التشنيع السابق أرأيت ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ ، وقد حذف مفعول يعلم ، ليذهب السامع في تقديره كل مذهب ممكن ، قصدا إلى التهويل ، ولم يترك على حذف مفعولي يعلم دليلا سوى المقام ، فيكون التقدير على مقتضاه من الوعيد والتهويل وهو المسمى عند النحاة بالحذف الاقتصاري كما قال ابن عاشور[3].

---

(١) راجع : البرهان للكرماني ص٢٢٣ .

(٢،٣) التحرير والتنوير ٥٠٦/٣٠ .

وتلاؤما مع الحذف الماضي بني الفعل للمجهول ﴿ بُعۡثِرَ﴾ قصدا لتوجيه العناية والاهتمام بالفعل دون النظر إلى الفاعل ، وكذلك تراه استخدم (بعثره) للدلالة على التفرق والتشتيت ، وهو ما جرى المطلع على لاحبه من بعثرة القدح وإثارة النقع ، وبعثرة الجمع بالمباغتة قياسا للغائب على الشاهد ، ضع مكان اللفظ إن شئت (أفلا يعلم إذا أُحْيَي ما في القبور) أتراه متناسقا مع سياق السورة؟ لا أخالك تخطئ هذه المناسبة ، وجاء بقوله : ﴿ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ معلما لعقد الآيات باليوم الآخر ، وهو متناسب مع غفلة القوم المصبحين بالإغارة حتى توسطهم المغيرون دون شعور منهم ، كذلك أهل القبور يباغتون بذلك دون شعور منهم أيضا ، وجاء نسق الآية على ترتيب الأهوال ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ فالأولى كانت في البعث ، وهذه في الحساب ، والملحوظ أنه استخدم (حصل) وهو من خصائص مفردات السورة الكريمة «والتحصيل لغة : الجمع والتمييز ، وأصله من الحوصلة والحوصلاء ، وهي من الطير كالمعدة للإنسان ، ومن الحوض مستقر الماء في عمقه الأقصى ، ولهذه الدلالة اللغوية الأصلية أثرها في معنى (حصل) هنا ، فكل ما يعمله الإنسان مستقر في أعماقه مجموع في صدره . . . . . والتحصيل لما في الصدور ، إيذانا بكشف المستور ، وإظهار المطوي المضمر دلالة واضحة ، لا نخطئها في استعمال القرآن للفظ الصدور»[1] وهو متلائم مع قوله في الزلزلة ﴿ لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ ومع مقصودها الذي قرره البقاعي من أنه انكشاف المستور[2] ، واستخدام هذا

(١) التفسير البياني ١/١١٦، ١١٧ .

(٢) راجع : سورة الزلزلة الفصل الخامس من الباب الثالث من هذا البحث .

الفعل متلائم أيضا مع حال الإنسان المقسم عليه ، فإن حب الإنسان المال محله الصدور ، وكذا كنوده ، وهذا التفريع له أثره في البيان عن حال غفلة الإنسان الذي مضى التشنيع عليه .

وقد ختمت السورة الكريمة بما يلائم نسق القسم في توكيدات المقسم عليه ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ قال ابن عاشور وهي «جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن الإنكار ، أي كان شأنهم أن يعلموا اطلاع الله عليهم ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ . . .﴾ وتفيد هذه الجملة مفاد التذييل»[1] والملحوظ أنه قدم المجرورات ﴿ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ وفي ذلك تناسب حال الإنسان السابق لذا أخر الاسم ﴿ لَّخَبِيرٌ ﴾ وقدم المجرورات فأومأ ذلك إلى العناية بتحصيل ما في صدورهم ، وكشف المستور من كنودهم وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ عقد الآية بما مضى من قوله : ﴿ إِذَا بُعْثِرَ . . .﴾ فالتنوين في إذ عوض عن الجملتين السابقتين ، والملحوظ أنه استخدم الخبير هاهنا وذلك لتفرد الله بهذه الصفة ، وهي تتقارب مع العليم ، إلا أن هذه الصفة قد يوصف بها غير الله .

تقول بنت الشاطئ فيما تفرع على حال الإنسان «وهذه الوقفة الحاسمة يبلغ بها القرآن ذورة المشهد العنيف لبعثرة ما في القبور ، وتحصيل ما في الصدور ، وتتسق مع مشهد الإغارة العنيفة في مستهل السورة على وجه باهر من البيان المعجز ، ولا أعرف [والكلام لها] أن أحدا من المفسرين حاول أن يربط بين المشهدين أو لمح ما بينهما من صلة هي معقد القسم

(١) التحرير والتنوير ٥٠٧/٣٠ .

ومجلى دقته البيانية»[1] ولقد قال أسلافنا ذلك وقالوه ونحن الذين لم نفهم مقالتهم ، والذي يطلب حقيقة ذلك يجتهد في اختلافهم في تأويل معاني الآي والمفردات ليتعرف على أسباب اختلافهم من سياق السورة ، وسياق القرآن كما حاولنا البيان عنه في كثير من المواقع والذي لها هو النص على البيان عن هذا الملمح وقد ظهر بما مضى كيف اتصلت آي السورة .

* * *

(١) التفسير البياني ١/١١٩ .